تجلي ّات المنفى وتشكّلات الهويّة في السّيرة الذّاتية خارج المكان لإدوارد سعيد نموذجا

Exil effect and identity formations in "kharidjelmakane " by edward said.

مسعودة عماري•

أد/حياة أم السعد♣

تاريخ الإرسال: 2021/09/01	تاريخ القبول: 2021/11/04	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

لقد أدّت الحركات الاستعمارية إلتسريع التّحولات الديمغرافيّة من الأقاليم المستعمَرة إلى الأقاليم المستعمِرة، ما أدّى إلى نزوح الكثيرين إلى المنافي، وفي تلك المنطقة البينية(المنفى) يتفاقم لدى المنفي ذلك الشعور بالاغتراب وانشطار الهويّة، فيظلّ ساعيّا إلى التّصالح مع ذاته عبر مزج تجربتين، فيخلق انتماء مهجّنا إلى هويّة مركّبة، تترفّع عن كلّ نقاء هوياتي، نرصد هذه التيمة من خلال السّيرة الذاتيّة "خارج المكان" للمفكّر الفلسطيني الأمريكي "إدوارد سعيد" الّذي عاش مرارة المنفى وقساوة الاغتراب

الكلمات المفتاحية: المنفى، الهوية، الهجنة، السيرة الذّاتية.

Abstract:

The colonial movements have led to immigration leading people to leave their country whether they wanted ornot. Unfortunately, they started facing two feelings: The new world and their country of origin. This has emerged in them the reject feeling between the world which they can't accept and the world which they love. So they created a hybrid created way to express the two cultures and experiences as in ''kharej El Makan'' which is an autobiography of a man known by his knowledge and who participated in topics about ego, and' Edward Saiid' who is a searcher and a thinker.

Key words:*exil, identity, hybrid, biography*

*** *** ***

• جامعة الجزائر 2 messaouda.amari@univ-alger2.dz

♣ جامعة الجزائر2 oumssadhayet@gmail.com

المؤلف المرسل:عماري مسعودة messaouda.amari@univ-alger2.dz

مقدمة:

لطالما اتّخذت العلاقات بين الشّرق والغرب شكل صراع دائم ومحتدم، وهو صراع يزداد حدّة بمرور الزّمن، فمهما بدا للعيان أنّ العلاقات بين هاتين الضّفتين المتعاديتين، تسير نحو مستقبل أفضل، قائم على أساس التّعايش والتسامح وحوار الحضارات، إلّا أنّ الأمر لا يتعدّى كونه حبرا على ورق، في ظلّ ما يشهده العالم من تنامي الأحقاد، واشتداد الصّراع وتواصله، في ظلّ غياب كلّيّ لبوادر حقيقيّة، تميط اللّثام عن جملة التّجاوزات الّتي يخرق بها الآخر حريّات الأنا، في مستويات متعدّدة.

فمنذ الحروب الصليبية و-قد يعود الأمر إلى فترات سابقة في التّاريخ– سعى الاستعمار إلى إحكام سيطرته على الشّرق، في محاولة لبسط نفوذه على جغرافيته، ثرواته وثقافاته، متّخذا في ذلك شتّى الأساليب والطّرق، ولم تتّخذ القوات الاستعمارية من الحملات العسكرية سبيلا أوحد لبسط هيمنتها على الضّفّة المقابلة لها، بل اتّخذت من الخطاب المعرفي والثّقافي أداة طيّعة لتحقيق مآربها،ولقد سعت القوى الاستعمارية بذلك إلى الإعلاء من شأن الأنا الغربيّة، ورسم صورة برّاقة نقيّة وصافيّة لهويّة جوهريّة لا سبيل إلى امتزاجها من جهة، واتّخاذ تلك الصّورة البدائيّة المتوحّشة المنوطة بالإنسان الشّرقي مبرّرا لبسط نفوذها على الشّرق من جهة أخرى.

شكّل ذلك تهديدا واضحا لهويّة الشّرقي الذي لم يستسغ مثل هذه المناورات، فسعى جاهدا إلى مواجهته بشتى الطّرق، سواء عن طريق التّصدّي العسكري، أو عن طريق العودة إلى الأصول الأولى، والانكفاء على الثّقافة الأمّ، في محاولة لترسيخ تلك الهويّة الشّرقيّة النّقيّة، وحمايتها من كلّ أنواع الاغتراب والاستلاب، فطفا إلى السّطح ما يسمّى بالنّقاء الهووي، أو الهويّة الجوهريّة النّقيّة الصّافيّة التي لا سبيل إلى اندماجها.

لكن وفي المقابل من ذلك، تمخّض عن الحركات الاستعمارية عبر التّاريخ سيل من الهجرات والانزياحات، حيث أدّت إلى نزوح الكثيرين عن أوطانهم الأصليّة إلى بلدان أخرى

غريبة، سواء كان ذلك طوعا أو كرها، وفي تلك المنطقة البينيّة حيث التواجد بين عالمين- منطقة المنفى- يتفاقم لدى المنفي ذلك الشّعور بالنبذ واللّااندماج في العالم الجديد من جهة، والحنين إلى الوطن الأوّل من جهة أخرى، ممّا يولّد لديه شعورا بالاغتراب واللّانتماء، وإحساسا باللّاستقرار وضياع الهويّة وانزياحها وازدواجها أو انشطارها بين عالمين، أحدهما متواجد فيه يصعب عليه الانخراط الكامل فيه، والآخر غائب لا سبيل له لإعادة مدّ جسور الانتماء له، فيظلّ ساعيّا إلى لملمة جراحه، في محاولة للتّصالح مع ذاته عبر مزج تجربتين وثقافتين مختلفتين، والمصالحة بين عالمين ظلّا يتنازعانه على مرّ السّنين، فيتوهّم انتماء مهجّنا إلى هويّة رماديّة، أو هي هويّة مركّبة ساهمت في تشكيلها جملة من التّناقضات، وهي هويّة تترفّع عن كلّ نقاء هوياتي.

من جهة أخرى ترتبط فكرة الهويّة ارتباطا وثيقا بأدب الاعتراف، أو ما يسمّى بكتابة الذّات، وعلى رأسها السّيرة الذّاتية، حيث يسعى الكتّاب من خلالها إلى إعادة تشكيل ذواتهم أو هويّاتهم، سعيا إلى لملمة خيوطها، قصد إعطاء معنى مكتملا لتجاربهم الحياتيّة، وهي الفكرة ذاتها التي يستأثر بها أغلب كتّاب المنفى.

اختلفت وتنوّعت الكتابات التي حاولت أن ترسم صورة هذا التمزّق الحضاري بين قطبين كل واحد منهما يجابه الآخر بما أوتي من وسائل، وولع ثلّة من المثقّفين والمفكّرين والفلاسفة والأدباء العرب الّذين ارتبطوا بهذه الأزمة، وحاول كل منهم حسب تخصّصه لملمة خيوط نسيج هذا الفعل المعقّد الذي عملت الحركات الاستعمارية على إشعال فتيله، وساهمت قوى أخرى عربية وغربية على جعله مستمرّا ومتطورا.

ولعلّ الأمر الذي أثار انتباهنا ونحاول تجسيده، هو فكرة الكتابة في المنفى عن الأنا المضطهد، وتشكّل الهويّة المغتربة في تلك المنطقة البينيّة، نرصد هذه التيمة من خلال السّيرة الذاتية أو الفكرية لرجل عرف بثقله الفكري، وخاض في مشكلات مركزية تمسّ جملة من العلاقات سواء الأنا بالأنا أو الأنا بالآخر، وهو الباحث المفكّر"إدوارد سعيد" الذي ولد في القدس وهو بروفيسور شرف في اللغة الإنجليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا

في نيويورك، ألّف سبعة عشر كتابا منها "الاستشراق" و"الثقافة والامبريالية"، والكتاب الذي يهمّنا في دراستنا هو- خارج المكان مذكرات-.

والأسئلة التي نطرحها من أجل صياغة إشكاليتنا:

كيف تتشكّل هويّة المنفي في ظلّ الإغتراب والتّواجد بين عالمين مختلفين يتنازعانه باستمرار؟

وبالضّبط كيف ساهمت جملة الارتحالات والانتقالات عبر فضاءات مختلفة والمرور بثقافات متنوّعة في تكوين ذات إدوارد سعيد و تشكّل هويّته؟

1- بين المنفى، الهويّة والسّيرة:

لقد أصبحت كتابة المنفى تتربّع على مساحة واسعة من مدوّنة الكتابة الأدبيّة في العصر الحديث، فهي لا تقتصر على جنس واحد من أجناس التّعبير الأدبي، إنما تتضافر مع جلّ أشكال التّعبير الأدبي بل هي على حدّ تعبير فريال غزول "تغطّي كلّ الأجناس الأدبية المعروفة من شعر ورواية وقصّة قصيرة وملحمة ومسرحيّة وأحيانا تتجاوز المتعارف عليه من الأجناس الأدبية الرّفيعة لتقدّم شهادات أو يوميّات أو سيرة"[1]

فنحن نجد من الرّوايات والقصص وحتّى القصائد وغيرها من أجناس الأدب الّتي كتبت في المنفى وعن المنفى.

وتعتبر السّيرة الذّاتية من أكثر الأجناس الأدبيّة تعبيرا عن حياة المنافي وتجاربها فهي تقع في قلب المدوّنة السّرديّة لأدب المنفى، ذلك أنّهما (السّيرة والمنفى) وإن صحّ التّعبير وجهان لعملة واحدة هي "استعادة الماضي" فإذا عدنا إلى السّيرة الذّاتية نجد أنّها وبالعودة للتّعريف"قصّةاسترجاعيّة يسعى من خلالها صاحبها إلى استعادة ماض انقضى وولّى،

وذلك قصد استخلاص معنى ما لحياة انقضت ولم يعد لها وجود، ذلك أنّ أقوى البواعث الباطنيّة لكتابة السّيرة الذّاتيّة حسب جورج ماي هو حاجة المرء للعثور على معنى لحياته المنقضيّة أو على إعطائها شكلا مخصوصا" [2]، وهي الفكرة ذاتها التي يستأثر بها المنفّيون أكثر من غيرهم باعتبارهم أناسا سلخوا عن ماضيهم أو عن حياتهم الماضيّة، فهم يسعون إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة.

إنّ المنفيّ وإن اتّفقنا على كونه ذاتا استأصلت من جذورها الأولى مخلّفة وراءها حياة لا سبيل إلى استعادتها، إلّا أنّ ذكراها تبقى شبحا يطارد كيانه أينما حلّ وارتحل فلا يهنأ له بال، ولا يستسعد بلحظة ارتياح إلّا إذا أعاد كشف وتجميع تراكمات حياته المنقضيّة، وهذا ما يضطلع به الجنس السيرذاتي، ذلك أنّ "السّيرة الذّاتيّة تتطلّع إلى الكشف عن خبرة متراكمة جاءت بها حقبة زمنية طويلة لن تعود، ونقل هذه الخبرة إلى أجيال قادمة تحتاجها، وهو ما تصرّح به عادة مطالع السيّر الذّاتية"[3].

من جهة أخرى نجد أن كتابة المنفى والجنس السيرذاتي يلتقيّان عند نقطة تماسّ أخرى هي مسألة إعادة تشكيل الهويّة، فالجنس السيرذاتي هو أكثر الأجناس الأدبيّة تعبيرا عن الأنا أي الهويّة، وهو ما سمّاه فيليب لوجون مبدأ الهويّة أو التّعاقد السيّرذاتي، حين أكّد على ارتباط الجنس السيرذاتي بمبدأ الهويّة.

إنّ كاتب السّيرة الذاّتية ورغم ما يبديه من غايات متعدّدة ومختلفة في كتابته لسيرته الذّاتيّة، إلّا أنّ غايته الأولى وموضوعه الأساس هو الإجابة عن سؤال واحد هو من أنا؟ وهو بهذا يسعى إلى لملمة شتات حياته والوعي بها قصد "انتزاعها من سلطة الحياة الغريزيّة التي تسير على وتيرة واحدة بغية تأهيلها لحياة أرقى وأخصب وهي حياة الفكر الحيوي العاكف على تفهّم أسرار ذاته وتأمّلها بوصفها الموقع الحسّاس، الذي تنعكس فيه حقائق العالم، وتتّحد انطلاقا منه علاقات الإنسان بالكون والكائنات جميعا، وبهذا تتجاوز مظاهر تصدّعها وشقاقها مع ذاتها ومع العالم لتدخل طور التوحّد والتقاط ما يسمّيه ميخائيل نعيمة بذرات النّفس المبعثرة[4]، تلك البذرات التي يسعى المنفيّ إلى لملمتها وبعثها من جديد، إنّها بذرات الهويّة المتشظيّة في الزّمن وهي إحدى الموضوعات الهامّة التي تضطلع بها كتابة المنفى كما سيلي.

إنّ تجربة النّفي هذه التي تكابدها نفوس هؤلاء المبعدين عن أوطانهم وبكل ما تطفح به من حنين مشوب بالقلق والاشتياق، وكذا التحوّلات السيّاسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمرّ بها هذه التجربة هي المنبع الذي لا ينبض للقضايا والموضوعات التي

تعالجها كتابة المنفى، وهي بهذا تتخطّى الموضوعات الجاهزة والأفكار النّمطية لتتبنى القضايا المتعلّقة بالمنفي في عالمه القديم دون التعصّب والانحيّاز للجماعات الأصلية.

بهذا المعنى يتبيّن لنا أن أدب المنفى ليس مجرّد تعبير عن آلام البعد والفراق ومرارة الاغتراب، ولا هو بكاء على هويّة ضائعة لا سبيل إلى إعادتها، بل يتجاوز لغة البكاء على الأطلال والتحسّر على ما ضاع، ليرتقي إلى مناقشة القضايا الكبرى للمنفيّ، وهذا ما يشير إليه إدوارد سعيد حين يطرح سؤاله من منطلق أنّ "أدب المنفى الحقيقي بوصفه حالة فقدان هل يمكنه أن ينتقل من مرحلة التّوصيف إلى مرحلة العطاء والإسهام في تحفيز الثّقافة على التحرّر من معوقاتها الدّاخلية، وإطلاق سراح الذّهنيّات من عقالها وتبصيرها بأوهامها، وضرورة الخروج من قهر "ثقافة اليتم" إلى حريّة ثقافة الإبداع وتحويل الصّعلكة إلى حافز منتج لضرب من المتصوّرات الجديدة لإشكال الهويّة والانتماء"[5]، وهو ما يسعى إليه مثقّفو المنافي الّذين حملوا على عاتقهم مهمّة النّضال والدّفاع عن هويّاتهم من شتّى أشكال الهيمنة والاستلاب.

وتعتبر مسألة الهويّة من أهمّ القضايا التي تعالجها كتابة المنفى وذلك لاتّصالها بجدليّة الأنا والآخر وهي الجدلية التي يتخبّط فيها المنفي باعتباره ذاتا يتنازعها عالمان مختلفان، "عالم الأنا وهو عالم مفقود تسعى إلى إعادة تشكيله الذاكرة، وعالم جديد يسعى إلى التّعايش معه، لكن مع الحرص الدّائم على تجنب خطر الإحساس بأنه حقّق درجة أكبر مّما ينبغي من الرّاحة والأمان"[6]، وبين هذا الانفصال الجراحي من جهة وذلك الشّعور اللاّسوي بالنّبذ واللاّارتياح يتكرّس ذلك العجز عن الانتماء إلى أيّ من العالمين "فالمنفي لا يستطيع الانخراط الكامل في المجتمع الجديد، ولا يتمكّن من قطع الصّلة بالمجتمع القديم الذي ولد فيه، فيتوهّم صلة مضطربة وانتماء مهجّنا وتتشكّل هويّته مضطربة هجينة تراوح في منطقة الانتماء المزدوج إلى هويّتين متباينتين، تأبى الانتماء إلى إحداهما، لتتكشّف لنا هويّة رماديّة مركّبة من عناصر كثيرة قائمة على فرضيّة تفكيك الهويّة الواحدة"[7]، وهي الفكرة الأساسيّة التي تتمحور حولها مذكّرات إدوارد سعيد" خارج المكان" كما سيتبيّن لنا فيما يلي:

2- تشكّلات المنفى وهويّة الاغتراب من خلال نصّ" خارج المكان" :

في هذه المنطقة بالذات - منطقة المنفى- تلك المنطقة البينية حيث التواجد بين عالمين، وبين ثقافتين وحيث الشّعور المتفاقم بالنّبذ والاغتراب، والبعد عن الوطن وعن الأصل الثقافي والعرقي، وما يخلّفه كل ذلك من فقدان للانسجام والتّوافق وانشطار الذّات، وضياع الهويّة تتنزّل السّيرة الذّاتية لإدوارد سعيد، باعتباره مثقّفا منفيّا ساهمت ثقافته الجديدة في ترسيخ ثقافته الأمّ لا محوها.

تطرح هذه السّيرة الذّاتيّة إشكاليّة مهمة: هي تلك العلاقة الوطيدة التي تقوم بين الإنسان ومكانه الأصلي، وما يترتّب عن انفصاله عن ذلك المكان وهيامه بين الأوطان ومعايشته لثقافات مختلفة من تأثير على تكوين ذاته، وتشكيل هويّته ضمن عالمينأو بيئتين مختلفتين تتجاذبه كل منهما إلى طرف، باعتباره منفيّا يقيم علاقة هشة مع كليهما.

2-1- خارج المكان سيّاق الهويّات المركّبة:

للسّياق دور فعّال في تحليل وتأويل الخطاب، ذلك أنّ فهم نّص من النّصوص متعلّق وبشكل كبير بالسيّاق الذي أنتج فيه، ذلك أنّه ما من نصّ إلاّ ويولد ضمن جملة من الظّروف التي هيّأت له شروط الولادة، والتي يتعذّر الوصول إلى معناه دون الإحاطة بها، لذلك سنعمل على استحضار السيّاقات المختلفة التي انبنس ضمنها هذا العمل.

لقد سعت الحركات الاستعماريّة إلى مركزة الذّات المستعمِرة وتهميش الآخر المستعمَر، فبرزت إلى السّطح فكرة الهويّة الثّابتة أو النقيّة التي سعى الاستعمار إلى تكريسها، وذلك استنادا إلى ثنائية الرّفعة/ الدّونيّة، قصد إخضاع المستعمر وإقناعه بكونه ذاتّا عاجزة، كسولة، متخلّفة وبدائيّة من جهة، واعتبار الذّات المستعمَرة ذاتا متعاليّة ومتحضّرة، وهي قيّم ثابتة قائمة بالأساس على التّنميط العرقي.

إلاّ أنّ هذا الفهم و التّحديد للهويّة سرعان ما أبان عن نوع من التّقوقع والانكماش النّاتج عن استبعاد الآخر، ذلك أنّ تحديد الهويّة لا يتمّ إلّا في إطار التّفاعل بين الذّات

والغير، ذلك أنّ تحديد الأنا يكون دائما بوجود الآخر، وهذا ما أدّى إلى تخطّي أو كسر حاجز الهويّة النقيّة، وفتح المجال واسعا أمام امتزاج الأمم والشّعوب وتهجين الهويّات.

إنّ فكرة نقاء الهويّة وثباتها ما هي إلاّ خرافة ميتافيزيقية وضرب من العبثية ذلك أنّنا على "حدّ تعبير إدوارد سعيد ممزوجون واحدنا بالآخر بطرق لم تحلم بها معظم الأنظمة التربوية"[8]، لذلك فإن فكرة الهويّة والعودة إلى الأصول ما هي إلاّ أسطورة تؤجّج نار الحروب والفتن بين البشر، وتعود بهم إلى مستنقع الطائفيّة والعنصريّة. من هنا برز إلى الوجود فهم آخر للهويّة، يتعالى عن التنميط والثّبات، ويتجاوز النّوازع الميتافيزيقيّة التي تشدّ الفكر إلى الأصل وثبات الهويّة، ومنه جاء الحديث عن الهويّة الهجينة.

ويعتبر الإنسان المنفيّ الّذي تخلّص من الحنين البدائي للأرض والوطن والجماعة، نموذجا لإنسان الهجنة الذي يرى في كل هذه الانتماءات ضعفا وقصورافهو الإنسان المستقبليّ الذي تنبّأ له الرّاهب السّاكسوني في القرن الثاني عشر "هون آن سان فيكتور" حين قال: "إنه لمصدر فضيلة عظيمة للعقل المجرب أن يتعلّم شيئا، أولاً أن يتغيّر في الأمور المرئية الزّائلة كي يكون قادرا بعد ذلك أن يخلّفها وراءه تماما، إنّ المرء الذي يجد وطنه حلوا ما يزال مبتدئا غضّا، وأما من يكون له كلّ الثرى مثل ثرى بلاده فلقد اشتدّ عوده، لكن الكامل هو الذي يكون العالم كله بالنّسبة له مكانا أجنبيّا، إن الرّوح اليافع قد ركّز حبّه على بقعة واحدة من العالم، والشّخص القويّ قد نشر حبّه على الأمكنة كلّها، وأمّا الرَّجل الكامل فقد أطفأ شعلة حبّه"[9].

في تلك المنطقة الوسطى (منطقة المنفى) حيث التّواجد بين عالمين مختلفين وبين ثقافتين متباينتين أقام إدوارد سعيد، واستطاع بفضل معايشته لهذا النموذج أن يصوغ رؤية ثالثة، رؤية مزدوجة توفيقية، تحاول إيجاد صيغة تقارب وتكامل بين الأنا والآخر بين الشّرق والغرب، وفي هذا السيّاق بالضّبط يندرج كتاب **"خارج المكان"**.

2-2- خارج المكان عنوان الشّتات والمنفى:

يعتبر العنوان العتبة الأولى التي تواجه القارئ وهو بصدد تصفّح كتابه، ذلك أنه يمثّل منارا يضيء مدخل النصّ، ومفتاحا إجرائيا يفكّ شفراته المختلفة، لذلك تذهب السّيميائيةإلى أنّه أي العنوان علامة لغوية بالدّرجة الأولى، وهو مصطلح إجرائي ناجع في

مقاربة النّص الأدبي، ومفتاح أساسّي يتسّلح به المحلّل للولوج إلى أغوار النصّ العميقة قصد استنطاقها وتأويلها.

بداية وقبل الشّروع في استنطاق عنوان النصّ الذي بين يدينا، لا بدّ لنا أن نضع تنظيما معيّنا، ولن نحيد في ذلك عمّا ذهب إليه مقاربوه في سعيهم إلى تأويله، فنتّبع ثلاثة أطر: مكوّنات العنوان التركيبية، مكوّناته الحذفية، وأخيرا مكوّناته الدّلاليّة[10].

أ- **المكونات التركيبية**: "خارج المكان": عنوان النصّ الذي بين أيدينا، وهو تركيب إضافيّ أي: شبه جملة ظرفية مركّبة من وحدتين معجمتين تجمعهما علاقة الإضافة. الأولى: مفعول فيه وهو مضاف (خارج) والثانيّة مضاف إليه (المكان).

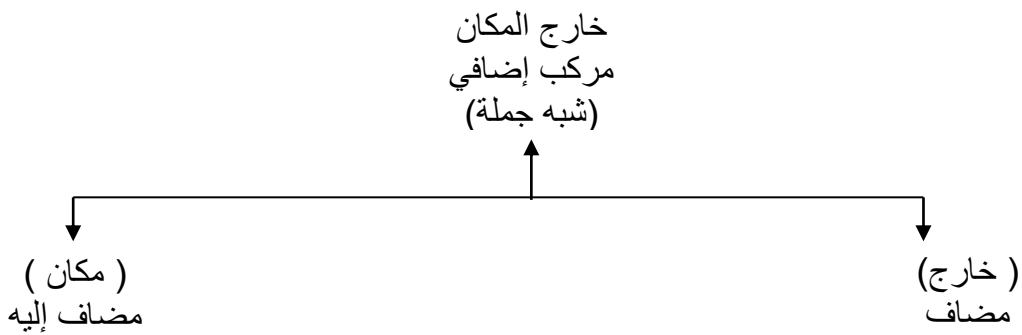

والمعلوم أن أشباه الجمل لا تستقّل بذاتها في الكلام بحيث تؤدّي معنى مستقلاّ، وإنّما يؤديّان معنى فرعيّا تابعا للجمل، فهي عبارة عن متعلّقات لابدّ لها من متعلّقات تتعلّق بها، وهذه المتعلّقات تدلّ في العادة على الحدث سواء كان فعلا أو مصدرا، اسم فعلأو غيره، وفي حالتنا هذه يبدو جليّا أن المتعلّق به محذوف وهذا ما يحيلنا إلى القسم الثاني من تحليل العنوان وهو المكوّن الحذفي.

ب- **المكوّن الحذفي**: وفقا لما سبق يمكننا القول أن العنوان **"خارج المكان"** لا يشكّل في استقلاليته جملة مفيدة، وذلك لكونه شبه جملة مبتورة عن متعلّقاتهاوفي هذه الحالة لا يمكن إيجاد تخريج للعنوان إلاّ بموضعته ضمن سيّاقه العام، ونقصد بذلك

موضعته في ضوء علاقته التّرابطية بالنّص الذي يعنونه وهو "السيّرة الذاتيّة" الذي يتّخذ موضع المتعلّق به، وبما أن السّيرة الذاتيّة هي حكي استيعاديّ متعلّق بأنا واقعي، وهو في حالتنا هذه إدوارد سعيد فإنّ أساس القول: "أنا خارج المكان" أو إدوارد سعيد خارج المكان" وبالتّالي فإن "خارج المكان" شبه جملة ظرفية متعلقة بخبر محذوف تقديره "متواجد" "أي إدوارد سعيد المتواجد خارج المكان".

ج- **المكوّنات الدلالية:**بداية سنحاول الوقوف عند دلالة المفردتين كلّ على حدا، أي الوقوف عند المعنى المعجمي لهما، ومن ثمّ نحاول الخوض في تأويلهما مقترنتين ببعض، ثم ننتقل لقراءة العنوان ككلّ أو تأويله بالنّظر إلى علاقته بالنّصباعتباره – كما سبق وذكرنا - حاملا لجزء من الموضوع العامّ له.

خارج: لفظ مأخوذ من مادة "خرج" بمعنى برز وظهر عن مكانه أي غادره وفارقه أي المغادرة والفراق والبعد عن المكان، بدليل قوله تعالى في سورة مريم: **قَالَ تَعَالَى:**﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ أي ظهر من مكانه وهو المحراب، ولا يبتعد المعنى عما جاء في سورة محمد حيث: **قَالَ تَعَالَى:**﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ أي المغادرة والمفارقة، ويستعمل الإخراج بمعنى: الطّرد والإجبار على الخروج.

المكان: بوصفه علامة لغويّة هو أحد شظايا الجذر اللّغوي "كون"، وقد جاء في "لسان العرب" مكان في أصل تقدير الفعل (مفعل) وهو موضع لكينونة الشيء فيه وموضع الشيء، أي المحلّ الذي يحلّ فيه ويتموضع، والفضاء الذي يحيط به، ويحدّد موقعه بالقياس إلى شيء آخر"[11]، إلّا أنّ العلاقة الوطيدة بين الإنسان ومكانه تنقل لفظة مكان من المعنى المعجمي إلى معنى أوسع.

إنّ المكان ليس مجرّد بقعة جغرافية ذات أبعاد معيّنة، إنّما هو في علاقته بالإنسان أعمق من هذا التصوّر، ذلك أنّه يتعلّق بكيان هذا الأخير ووجوده وهويّته فالإنسان هو الّذي يقوم بخلقه وإيجاده عن طريق ترسيخه لقيّمه ومبادئه فيه، والتّي يعتبر المساس بها مساسا بشخصه وذاته ووجوده، لذلك ظّل التعلّق بالمكان ومنذ زمن بعيد نوعا من الصّراع

من أجل الوجود والحياة، فالتّواجد في المكانيبعث في الإنسان شعورا برسوخ الذّات وتجذّرها، وشعورا بالرّاحة والطّمأنينة والانتماء. هذا الشّعور الذي يعتبر مرتكزا من مرتكزات الهويّة.

ومما سبق يمكننا القول أنّلفظة "خارج" تعني الابتعاد والمفارقة والطّرد والإجبار على الخروج، أي: التنحّي والانزياح عن مكان معيّن.

أمّا المكان فهو: موضع التّواجد، ودليل الرّسوخ والتجذّر والانتماء وثبات الأصل والهويّة، ويعتبر الانتماء للوطن أعلى صور الانتماء، ذلك أنّ الوطن هو الهوية والانتماء والقضيّة، وكلّما ارتبط به الإنسان ترّسخ وجودهوهويته، ذلك أنّه المكان الأوّل الذي تتجذّر فيه الذّات الإنسانيّة، والّذي يعتبر بؤرة مركزيّة تستقطب تفاصيل الحياة الشّاملة الّتي تتمحور حولها التّجربة الإنسانيّة.

وفقا لهذا وبالعودة إلى النّص الذي بين أيدينا يمكننا القول أن "خارج المكان" هو عنوان اللانتماء والتنحّي والارتحال والابتعاد عن الوطن، أي النّفي والاغتراب وضياع الهويّة، فهو يأتي واضح الدّلالة على القصد من إنشاء هذه السّيرة، ففي محاورة وجيزة بين العنوان ونصّه، نجد أنّ هذه السّيرة تحكي قصّة الشّتات والتمزّق التي كابدها المؤلّف على مستوى المكان، وهو أمر مربك ومزعزع لغريزه الاستقرار، ففي البدء كانت القدس مسقط رأسه وموطنه الذي ولد فيه، والذي يفترض أن يمثّل الموضع أو المكان الحاوي له ولتفاصيل حياته، وكذا موطن انتمائه ودليل تجذّره وثبات هويته، إلّا أنّه سرعان ما تبدّد وسط عتمة الارتحالات، حيث ظلّ مرتحلا بين عوالم مختلفة، ليصارع مرارة النفي والاقتلاع من الوطن، وضياع الهويّة التي زادها زعزعة وإرباكا كلّ ما رافق مسيرة حياته من أحداث سياسية، شكّلت تاريخ وطنه الأول، ومصير أهله وأقدار ذويه الذين طالهم من الشّتات والضّياع ما نال ذاته.

2-3- البنى الكبرى وتشكّلات المنفى وهويّة الاغتراب:

يعدّ الوقوف عند البنى الكبرى للنصّ ضرورة لفهمه وبناء انسجامه، ذلك أنّ النصّ ليس مجموعة أو متتاليّة من الجمل، إنّما هو جملة من الموضوعات أو التّيماتالتي تمثّل أعمدته التي يرتكز عليها، والتي تكوّنه وتبني لحمته، فهي بمثابة الذّاكرة التي تحفظ النصّ من الزّوال، فالنّصّ الذي لا نجد فيه بنى كبرى ليس نصّا، ذلك أنّها تساعدنا على حفظ وتذكّر أهمّ الأفكار، أو القضايا الأساسيّة التي يتناولها أو يعالجها النّصّ، ذلك أنّ القارئ ومهما كانت درجة موسوعيّته، إلّا أنّه لا يتمكّن من حفظ كلّ معطيات النّصّ مهما كانت درجة ثرائه، بل على العكس من ذلك تماما، فهو يروم حصر هذه المعلومات إلى أقصى درجة ممكنة، وذلك قصد استيعاب فكرة النصّ، أو موضوع النّصّ العامّ، ولا يتأتّى له هذا(للقارئ) إلّا بالبحث عن بنى النّصّ الكبرى، لذلك سنحاول الوقوف عند أهمّ التّيمات التي انبنى عليها نصّ خارج المكان.

2-3-1- المنفى وازدواج الهويّة:

في هذه السّيرة "لا يدّخر إدوارد سعيد جهدا في تصوير علاقته الواهنة بالأمكنة وتوسيع دلالاتها ليجعل منها فضاءات ثقافيّة، مصوّرا نفسه عالقا بينها ومن خلال ذلك ينزلق إلى المنطقة الجوهريّة في أيّة سيرة ذاتية وهي تكوين الذّات"[12]، ولكن هذه المرّة تكوين الذات في وضع خاص جدّا، باعتباره فلسطينيّا مهجّرا منها منذ عام 1948م، مرّت حياته بجملة من الانتقالات الإرادية منها والقسريّة بين فضاءات مختلفة، ظلّ متأرجحا بينها ليستقرّ في منفاه الأخير بالولايات المتّحدة الأمريكية عام1956م، وبين هذه الانزياحات المتواصلة عن الوطن، يتفاقم لديه ذلك الشّعور بالنّبذ والاغتراب واللااستقرار وكذا بالفقد والحنين للوطن .

فبين عالمين مختلفين وجد إدوارد منزلقا من المكان، متواجدا في اللاّمكان تتصارع بداخله ذاتان لا سبيل إلى تغليب إحداهما على الأخرى، فلا هو عربي كامل ولا هو أمريكي خالص بل ظل يراوح بين هويّتين متضاربتين، ما أنتج لديه شعورا بالغربة المزدوجة، وارتباكا في الهوية، فكان الانكفاء والعودة إلى هويّته الأولى ضرورة لا بدّ منها قصد تجسير تلك الهوّة بين عالميه فيقول: "إلى ذلك نما لديّ شعور متزايد بأنّه إذا كنت أشعر بوجود هوّة من سوء

التّفاهم تفصل بين عالميّ الاثنين، عالم بيئتي الأصليّة وعالم تربيتي، فإن مهمّة تجسير تلك الهوّة إنّما تقع عليّ وحدي دون سواي، فلم يكن لي من خيار غير السّعي إلى هويّتي العربيّة وتمثّلها"[13].

2-3-2- تغييب وطن تغييب هويّة:

كان لجهل الأصول الأولى لدى إدوارد سعيد دور كبير في ارتباك هوّيته، وليس بعيدا عن هذا أدّى ذلك التّعتيم الّذي مورس من طرف أسرته على فلسطين وقضيّتها بل على الوطن وقضيّته أثرا بالغا في تكوينه الذّاتي، وفي إدراكه لنفسه وأصوله وهويّته.

لم تتكلّف أسرة إدوارد سعيد عناء تنوير الفتى إدوارد بقضايا وطنه، وتبدّى له ذلك بداية الأمر في ذلك الصّمت المطبق الذي مارسه كلّ من أبويه حول علاقتهم كفلسطينيّين باليهود، وبالضّبط علاقته هو التّلميذ الفلسطيني بغيره من التّلاميذ ذوي الأصول اليهوديّة لذلك يقول إدوارد: "تحوّل انقطاع صلتي بعزرا -وهو تلميذ يهودي- إلى رمز للهوّة غير القابلة للتّجسير بين العرب الفلسطينيّين واليهود، وهي فجوة قمع الحديث عنها لغيّاب المفردات والمفاهيم الّتي تمنع مناقشتها، كما تحوّلإلى رمز للصّمت الرّهيب الّذي سوف يطبق على تاريخنا المشترك"[14]، فكانت تلك إحدى المحاولات لتغييب الآخر عن الأنا واستبعاده، ممّا وسّع الهوّةبين إدوارد الفلسطيني وآخره الإنسان اليهودي الّذي تمثّل هنا بالذّاتفي شخص عزرا ذو الأصول اليهوديّة.

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، إذ لم يكتف أفراد عائلته باستبعاد الحديث عن العلاقات اليهوديّة الفلسطينية، بل وصل الأمر إلى حدّ استبعاد الحديث عن فلسطين كوطن أو قضيّة، فرغم ما تركته أحداث دير ياسين مثلا من أثر على حياة إدوارد سعيد وعائلته من تفكّك أسري، وشروخات وتباينات وانتكاسات في أوساط عائلته، إلاّ أن الأمر ظلّ معتّما مبهما في ذهن إدوارد الصّغير الذي طالما استبعد عن مثل هذه الأحاديث بدعوى الخوف على عقله الصّغير يقول: "تعرّضت مسألة فلسطين إلى قمع نسبي من والديّ فلا هي محلّ نقاش ولا تستحق منهما تعليقات...على أنّ قمع فلسطين في حياتنا تمّ كجزء من عمليّة لا تسييس واسعة النّطاق من قبل والدين لا يثقان بالسيّاسة"[15]، وبهذا تمّ تغييب

إدوارد باتّجاهين متقابلين، فبين تغييبه عن وطنه ونفيه إلى مكان آخر ، وبين تغييب الوطن من ذهنه ومحاولة طمس ما تبقّىله في الذّاكرة من خيالات باهتة، وجد إدوارد فتى منفصما، فازداد بذلك شعوره بالاغتراب.

2-3-3- الحنين إلى أمكنة مستعادة:

يعتبر المنفيّ ذاتا مبعدة ومنزاحة عن الوطن، وهي ذات تعاني مرارة الفقد وولع البعد، تكابد عذابا وقلقا مستمرّا، وحنينا جارفا إلى الوطن، ولكن مع عجز مكرّس على إعادة مدّ جسور العودة إليه، ولكن دون التخلّص من شبحه، فلا يتمكّن المنفي من قطع الصّلة بوطنه الأصلي، فيظلّ ساعيّا إلى استعادة وطن ضائع، في محاولة منه لتعويض ما خسره، فتصبح الذّاكرة سبيلا لاستعادته والخيال خيطا ينسج حكايته.

يولي المنفيّون أهميّة بالغة لاستعادة أوطانهم وأمكنتهم الأولى عبر سيل من الذّكريات، وكغيره من المنفيّين الّذين كابدوا مرارة الفقد والاجتثاث، والانسلاخ عن أوطانهم، سعى إدوارد سعيد في سيرته الذاتيّة إلى إحياء عوالم لم تعد موجودة في محاولة منه على حدّ قوله:"تجسير المسافة في الزّمان والمكان بين حياته اليوم وحياته بالأمس"[16]، فإدوارد سعيد يستعيد تلك الأمكنة التي ظّل منتقلا بينها، ضمن جملة من الارتحالاتالتي كان لها الأثر الكبير أيضا في تشكيل هويّته، فمن القدس إلى القاهرة وظهور الشوير ونيويورك وبوسطن، كلّها أمكنة كان لها أثر كبير في نفسيّته وتكوينه الشّخصي نظرا لتلك التنقّلات التي أفقدته كلّ شعور بالانتماء، فراح إدوارد سعيد يستعيدها على خلفيّة شعور بالغياب عن المكان والشّعور الدّائم بالتّواجد خارجه إذ يقول:"منذ عدّة سنوات، تلقيّت تشخيصا طبيّا بدا مبرما (اكتشاف إصابته بمرض السّرطان)، فشعرت بأهميّةأن أخلّف سيرة ذاتيّة عن حياتي في العالم الذي ولدت وأمضيت سنواتي التكوينيّة، كما في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث ارتدت المدرسة والكليّة والجامعة، العديد من الأمكنة والأشخاص التي أستذكرها هنا أصبحت غير موجودة، على الرّغم من أنّني أندهش باستمرار لاكتشافي مدى استبطانها، وغالبا بأدقّ تفاصيلها، بل بتشخيصاتها المرّوعة"[17].

2-3-4- هجنة الاسم واضطراب الهوية:

لقد أدرك إدوارد سعيد أنّه خارج المكان، خارج الدّائرة الحميميّة التي ينتمي إليها فظلّ يتملّكه شعور مريب ومرعب من العزلة واللااستقرار، وضعف الذّات وارتباك الهويّة، ويبدأ شعور إدوارد سعيد بارتباك الهويّة واضطرابها، وشعوره بالانفصام والتّواجد بين عالمين، باسمه الهجين "إدوارد سعيد" الّذي كان يسبّب له الكثير من الحرج، حيث وقف حاجزا أمام إثبات إحدى الهويتين المتصادمتين، المتصارعتين بداخله، حيث وقف الجزء الأول منه – وهو اسم انجليزي- في وجه إثبات هويتّه العربيّة، كما وقف في الجانب الآخر الجزء العربي منه "سعيد" في سبيل إثبات كونه أمريكيّا كما خطّط له أبوه دائما، فكان إدوارد سعيد المنشطر بين اسمين وبين عالمين بل بين شعورين، فكان إدوارد الأمريكي واللاأمريكي في آن والعربي واللاّعربي في آن أيضا فكان يقف موقف المحرج أمام الأسئلة المشكّكة في هويتّه دائما من نوع: "ما أنت؟ لكن اسمك عربيّ...، هل أنت أمريكي؟ تقول أنك أمريكي مع أنّ اسمك ليس أمريكيّا وأنت لم تزر أمريكا قطّ لا يبدو شكلك أمريكيّا، كيف يعقل أن تكون ولدت في القدس وأنت تعيش هنا، أنت عربيّ في نهاية المطاف ولكن من أيّ نوع؟ هل أنت بروتستانتي؟"[18].

2-3-5- ازدواجيّة اللّغة وصراع الهويات:

يعتبر انزياح اللّغة وتزاحم اللّغات واحدا من المخلّفات التي تفرضها التّحولات الجغرافيّة، ويساهم ذلك في اضطراب الهويّة، ذلك أن اللّغةهي إحدى مقوّمات الهويّة بل هي أقدم ركائزها باعتبارها الخيطالذي يضمّ النّسيج الواحد، فاللّسان الواحد هو الذي يجمع شمل الجماعة عبر التاريخ، لذلك عمد الاستعمارإلى إزاحتها عبر التاريخ في محاولة لطمس الهويّة الأصليّة للشّعوب، وذلك عن طريق خلق ازدواجية في اللّغات في محاولة إلى دفع اللّغة الأصليّة للوراء ذلك أنّ "تزاحم اللّغات الجديدة حسب عبد الله إبراهيم يؤدي إلى دفع اللّغة الأصليّة إلى الوراء، ومعها التصوّرات الذهنيّة المصاحبة لها، وتقترح اللّغات البديلة لها متصوّراتها الجديدة، وبذلك تخرّب الصّلة الطبيعيّة مع المكان الأوّل، وتفرض صلة ثقافية جديدة، فتقع القطيعة بين المنفي ووطنه ليس بالمعنى المباشر فقط، إنّما

بالمعنى الرّمزي، إذ يسترجع دور اللّغة الواصفة، وينحسر التواصل ويجري ترحيل الوطن المفقود من مرتبة الواقع إلى مرتبة الذّكرى المستعادة"[19].

بالنّسبة لإدوارد سعيد لم ينحصر شعوره باضطراب الهويّة وانزياحها في اسمه الهجين، بل تعدّى ذلك إلى لغته المزدوجة، ويبدأ هذا الانزلاق اللّغوي عند إدوارد سعيد منذ الطّفولة، ذلك أنّه ولد في بيئة وأسرة عربيّة تسعى إلى أمركة عالمها وإلحاق ذاتها وأبنائها بأمريكا مكانا ونسبا يقول: "لم أعرف أبدا أيّة لغة لهجت بها أوّلا: أهي العربيّة أم الإنجليزيّة ولا أيّا منهما هي يقينا لغتي الأولى، ما أعرفه هو أن اللّغتين كانتا موجودتين دوما في حياتي، الواحدة منهما ترجّع صدى الأخرى وتستطيع كلّ منهما إدّعاء الأولويّة المطلقة، من دون أن تكون هي فعلا اللّغة الأولى"[20].

وإلى جانب اللّغتين العربيّة والإنجليزيّة، دخلت اللّغة الفرنسيّة كطرف صراع بين اللّغات في حياة إدوارد سعيد باعتبارها لغة الطّبقة الرّاقيّة أيّام القاهرة الكولونياليّة، وأضحت اللّغات الثلاث مسألة حسّاسة جدّا بالنسبة له، وقد ولّد لديه هذا التّنازع بين اللغات شعورا بقصور كليهما في التّعبير عن تجاربه في البيئة المغايرة لتلك اللّغة، فظلّ ساعيا إلى ترجمة تجاربه إلى لغة مختلفة، وقد سيطر هذا التّنازع اللّغوي على الذّات الإدواردّية، فساهم بشكل كبير في تأجيج ذلك الارتباك، فظلّ ساعيّا إلى المصالحة بين لغتين، وبين ذاتين مختلفتين، ساهمت في خلقهما ثقافتين بل عالمين مختلفين، فظلّ إدوارد منشطرا بين هذا وذاك ساعيا إلى إحداث تكامل بين هذه المتناقضات ولكن دون الانفلات من الإحساس بالغربة المزدوجة.

خاتمة:

حاولنا في هذه الورقة إلقاء الضّوء على إشكاليّة مهمّة تتعلّق بتلك التّجربة المريرة التي تكابدها نفوس المنفيّين، وتأثير تلك الارتحالات المتواصلة -وكلّ ما يرتبط بها من وشائج- في تكوين هويّاتهم، ورؤيتهم لذواتهم وللآخرين، وذلك من خلال دراستنا السّيرة الذاتية للمفكّر الفذّ "إدوارد سعيد" وقد خرجنا بجملة من النتائج هي كالتّالي:

أنّ فكرة الهويّة الصّلبة هي خرافة ميتافيزيقيّة، تؤجّج نار الفتن والحروب وعصرنا هو عصر التعدّديّة الثقافية وتقبّل الاختلافات، لذا فقد آن الأوان للنّداء بهجنة الهويّات، والمناطق البينيّة التي تلتقي فيها التّضادّات الثّقافيّة والهويّاتيّة وتتعايش.

أنّ المنفي ذات منشطرة وممزّقة بين عالمين، بين حنين هوسي للمكان الأوّل ونفور دائم من المكان الجديد، لذلك فهو يشعر بأنصاف انتماءات لا انتماءات كاملة؛ إلّا أنّه ورغم تواجده في تلك المنطقة البينيّة حيث اختلاف الثّقافاتوكذا الانتقالات والانزياحات يظلّ ساعيّا إلى لملمة جراحه، وتقبل هويّته الهجينة.

يعتبر إدوارد سعيد واحدا من المفكّرين الّذين كابدوا مرارة النّفي والشّتات؛ إلّا أنّه ظلّ متمسّكا بهويّته الأصليّة مدافعا عن قضيّة شعبه، ولكن دون إزاحة الآخر، فبدا من خلال مشروعه السيّرذاتي مثالا للنّاقد الفذّ والمثقّف الكوني المتشبّع بالقيّم الإنسيّة التي بدت بوضوح فيما جاء به من مقولات لعلّ أبرزها مقولة الهويّة المركّبة.

تناولنا في هذه الورقة قامة علمية فارعة "إدوارد سعيد "وهو المفكّر الكوني الذي لا يتأتّى فكره بسهولة، حتّى وإن تعلّق بحثنا أو اقتصر على مذكّراته الشّخصيّة، إضافة إلى طبيعة الجنس المدروس(السيّر ذاتية) وهو جنس زئبقيّ يثير جملة من الإشكاليّات لعلّ أبرزها تلك العلاقات التي يقيمها مع أجناس أخرى سواء القريبة منه أو البعيدة كالرواية، إضافة إلى أنّه جنس لم تكتمل مقوّماته ولم تضبط بعد.

الهوامش:

[1]- فريال غزول: الأسس النظرية والثقافية لكتابة المنفى، ضمن كتاب: الكتابة والمنفى، تحرير وتقديم عبد الله إبراهيم منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط الطبعة الأولى، 2011م، سص41.

[2]- عبد الله إبراهيمالسرد الاعتراف والهوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر –بيروت- الطبعة الأولى، 2011م، ص21.

[3]- فيصل الدرّاج: الكتابة الذّاتية والمنفى، ضمن كتاب: كتابة المنفى، ص260.

[4]- جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذّاتية في الأدب العربي- بحث في المرجعيات- مركز النشر الجامعي بتونس ومؤسسةسعيدان للنشر2004م، ص 669.

[5]- أحمد يوسف: اللغة وآداب المنفى، ضمن كتاب "الكتابة والمنفى"، ص 317.

[6]- إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، ترجمة: محمدعناني، رؤية للنشر والتوزيع،2006م، ص 92.

[7] -عبد الله إبراهيم: بيان المنفى، ضمن كتاب: الكتابة والمنفى، ص09.

[8]- المرجع نفسه، ص 24 .

[9]- المرجع نفسه، ص 30.

[10]- ينظر: المرجع نفسه، ص 727.

[11]- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كون، ص3960.

[12] - عبد الله إبراهيم: تشريح مدوّنة المنفى، ضمن كتاب: الكتابة والمنفى، ص60.

[13]- إدوارد سعيد: خارج المكان، ترجمة: فوازطر ابلسي، دارالآداب –بيروت- الطبعة الأولى 2000م، ص 09.

[14]- المرجع نفسه، ص 151.

[15]- المرجع نفسه، ص145.

[16]- المرجع نفسه، ص 22.

[17]- المرجع نفسه، ص19.

[18]- المرجع نفسه، ص 28.

[19]- عبد الله إبراهيم: السّرد والاعتراف والهويّة، ص 24.

[20]- المرجع نفسه، ص 26.